حول الفلسفة

المدرسة الأيونية

المدرسة الفيثاغورية

هير قليطس

المدرسة الإيلية

أمبادو قليدس

المدرسة الذرية

انكساجوراس

السوفسطائية

سقراط

أفلاطون

كانت أشباح الآلهة وخيالات الأبطال والقديسين تزاحم البشر وتتقاطع مع أعمالهم الدنيوية، وتتدخل في مسار الطبيعة، وذلك في عقول الإغريق الذين خلقوا الآلهة.

ولم تكن الآلهة التي ابتدعها خيال الإنسان في العصور القديمة على مستوى واحد، فأهمها الآلهة الكبرى، وهي تمثّل قوى الطبيعة التي تحيط بعالمنا، مثل الأرض والماء والهواء والنار، وآلهة أخرى أقل شأنًا من الأولى مثل آلهة الحب وآلهة الحصاد.

ومن بين الأساطير القديمة، تعتبر أساطير الشعوب الإغريقية أروعها وأكثرها طرافة.

كان الإغريق الأوائل يعتقدون بأن العالم وُجد نتيجة صراع الآلهة، ففي البدء كان الفضاء «جوس» (Chaos)، ثم انطلقت «جايا» (Gaea) أي الأرض منبثقة من الفضاء. ومن الأرض ولد «هيميرا» (Hemera) أي النهار ثم الليل، ثم «أورانوس» (Uranus) أي السماء، ثم «بونتوس» (Pontus) أي البحر.

بعد ذلك جاء العمالقة الـ «سيكلوب» (Cyclopes)، وهم مخلوقات بشعة ذات عين واحدة في منتصف الجبهة، ثم جاء الـ «تيتانوس»

(Titanus)، وقد جسّد العمالقة وتيتانوس، كل ما هو ضخم وقوي على الأرض، مثل الجبال الشامخة والزلازل وثورات البراكين.

وقد استطاع أصغر التيتانوس، الإله «كرونوس»، أي الزمن، إخضاع العالم كله تحت سلطانه. وكان الزمن، ولا يزال، شديد القسوة مجرداً من الرحمة، لم يتورع عن افتراس أولاده. وبهذه الصورة البشعة، كان اليونانيون يرمزون إلى الزمن الذي يحطم كل شيء في الوجود دون شفقة أو رحمة.

أما «أورانوس» إله السماء، فكان يخشى أولاده من الذكور، ويقذف بهم في الهاوية عقب ولادتهم، غير أن زوجه الأرض «جايا»، استطاعت إنقاذ ابنهما الزمن «كرونوس» من الهلاك، فاستطاع بدوره إطلاق سراح أخوته. وعلى ذلك تنازل الابن البكر تيتانوس عن حقوقه إلى شقيقه كرونوس، شريطة ألا يقوم بتربية أولاده الذكور، فقبل كرونوس هذا الشرط. ولهذا السبب، افترس أبناءه من زوجه «تيا» (Thea)، ولكن ابنه الخامس «زيوس» (zeus)، إله الرعد، أفلت من هذا المصير المفجع، وعندما أصبح رجلاً، خلع والده وحارب التيتان وانتصر عليهم، وبذلك أصبح زعيم الآلهة. يطلق عليه بالرومانية «جوبيتر».

يرمز جوهر الأسطورة الإغريقية إلى انتصار زيوس، الذي كان بداية عهد من الاستقرار والنظام والسلام على الأرض. وفي الواقع فإنه بمرور القرون والأجيال، قلّت الكوارث التي كانت تتعرض لها الأرض منذ بدء الخليقة، مما انعكس على الفكر الإنساني بأن حُكم الآلهة قد استتب. والإله زيوس يُجسّد النظام الرائع الذي يسود الكون، ولهذا السبب اعتبر الإله الذي كان ينبغي على الآلهة الأخرى التي تمثل مظاهر الطبيعة

المختلفة جميعها، أن تدين له بالطاعة والولاء.

كان الإغريق يعتقدون أن أهم الآلهة تؤلف أسرة واحدة، تعيش فوق قمة جبل «أوليمب». وكان لكبيرهم إله الرعد زيوس، عدة زوجات كانت أهمهن «هيرا»، وله منها «مارس» إله الحرب و«أفروديت» آلهة الجمال والحب، و«هرمز» رسول زيوس و«ديونيسوس» إله الخمر، و«مينرفا»، آلهة الحكمة التي كان يعتقد أنها انبثقت، وهي كاملة النمو، من رأس زيوس. وقد صوَّر الإغريق الآلهة بأشكال مختلفة، فمنها من كان وسيم الطلعة أو قبيح المنظر، ومنها من كان عجوزاً أو شابًا، وفقًا لمهنته، فمثلاً كان مظهر الإله مارس، يوحي بالتهديد والحرب، وكان «فلكان» إله الحدادة يوحي بالقبح والقوة.

هكذا انبعثت الفلسفة اليونانية، في ظل هذه الآراء، وكانت معولاً أخذ يهدم بفاعلية كل هذه المعتقدات. واتفق مؤرخو الفلسفة من الغربيين على أن اليونانيين مدينون للشرق القديم بالكثير من النظم والمعلومات الرياضية والأفكار الفلكية... لكنهم يرون أن الفلسفة اليونانية خلق عبقري أصيل جاء على غير مثال، وليست امتداداً أو تطوراً لحكمة الشرق القديم، إذ كانت التماسًا للمعرفة النزيهة التي ترمي إلى كشف الحقيقة بباعث من اللذة العقلية وحدها، دون أن تدفعه إلى ذلك أغراض عملية أو غايات دينية. وإذا كانت مناهج البحث عند قدماء الشرقيين قد اختلط فيها الاستدلال العقلي بالبداهة والخيال، وكانت تأملاتهم وليدة معتقداتهم الدينية، فإن الفلسفة اليونانية قد قامت على البرهان العقلي والتحليل المنطقي. ولم يكن غريبًا بعد هذا أن يقول «برتراند راسل» إن اليونان هم الذين أنشؤوا العلم الطبيعي، وابتدعوا العلم

الرياضي، وابتكروا الفلسفة! ومرت الفلسفة اليونانية بثلاث مراحل، استغرقت الأولى والثانية منها العصر الهليني الذي انتهى بموت أرسطو والإسكندر الأكبر في أوائل القرن الرابع قبل ميلاد المسيح. وفي المرحلة الأولى، التي كانت إبان القرنين السادس والخامس قبل الميلاد، وُضعت أصول الفلسفة النظرية على يد الأيونيين والفيثاغوريين والإيليين، ثم نشأت الفلسفة العملية على يد السفسطائيين وسقراط، الذين أنزلوا الفلسفة من السماء إلى الأرض، فاتخذت الإنسان والأخلاق مجالاً لبحثها.

وفي المرحلة الثانية، إبان القرن الرابع قبل الميلاد، كانت فلسفة عملاقي الفلسفة اليونانية: أفلاطون وأرسطو، قد استوعبت شتى فروع العلم، وتناولت بالدراسة العميقة مسائل الفلسفة طولاً وعرضًا.

أما المرحلة الثالثة، التي شغلت الفترة ما بين القرنين الثالث والأول ق.م.، فكانت في العصر الهلينستي، وفيه افتقد اليونان استقلالهم في موقعة «خيرونيا» العام 338ق.م. وأذهل الإسكندر العالم بانتصاراته الضخمة في فتوحاته الجبارة للشرق. ومال الفكر الفلسفي في هذا العصر إلى الغروب، ونضبت أصالته وجفت ينابيع الابتكار، وتدهورت الحياة العقلية التي بلغت ذروتها على يد أرسطو، وأصبح الفلاسفة يستخفون بالنظر العقلي المجرد، ويسخّرون الفكر لخدمة الأخلاق، وكان مصداق هذا في أكبر مدارس العصر الفلسفية، وفي مقدمتها «الرواقية» و«الأبيقورية».

● *وسنستعرض في ما يلي المرحلتين الأولى والثانية.*

1

المرحلة الأولى

المدرسة الطبيعية الأيونية

«الأصل الواحد للأشياء»

وسُميت بذلك لأن الممثلين الرئيسين الثلاثة لهذه المدرسة، وهم طاليس وأنكسمندريس وانكسمانس، من أيونيا أي من ساحل آسيا الصغرى.

أ ـ طاليس: وهو من الحكماء السبعة، ولد سنة 624 ق.م. ومات حوالي سنة 550 ق.م. وقد اهتم كثيراً بدراسة الطبيعيات، وتنبأ بكسوف الشمس في سنة 610 ق.م. علمًا أن هذه التواريخ تقريبية وينطبق الشيء نفسه على تواريخ الفلاسفه الأوَل.

وتعتبر فلسفة طاليس «طبيعية»، لأنها تبحث عن الأصل الطبيعي للموجودات. وكان يعتقد أن «الماء» هو هذا الأصل، وأن أي شيء يمكن أن يتحول إلى ماء، فيما يمكن للماء أن يتحول أيضًا إلى أي شيء آخر.

وكان طاليس يتصور أن الأرض تطفو فوق الماء كما يطفو الخشب على

بحيرة هادئة، وأن الكون ملي، بالآلهة، كما كان يعتقد بأن النفس تملأ العالم، وأن كل شيء متحرك له نفس، فالإنسان يتحرك.. إذن له نفس، ومثله الحديد الذي يتحرك بفعل مغناطيس... ولم يكن الفرق في ذلك الوقت واضحًا بين الروح والمادة.

2 ـ **انكسمندريس**: بعد وفاة طاليس في منتصف القرن السادس قبل الميلاد، انتقلت المدرسة الأيونية إلى مدينة «مليطة»، إلى أنكسمندريس الذي ربما ولد حوالي العام 611 ق.م. في تلك المدينة. والذي توصل إلى قياس الوقت بواسطة ظل الشمس، وكان يعتقد بأن الأرض لا ترتكز على حامل، كما ظن طاليس، بل هي معلقة في وسط السماء على مسافة متساوية من سائر الأفلاك، وأن الأصل الأول للموجودات هو اللامحدود، الذي لا يمكن أن يكون عنصراً طبيعيًا بعينه، مثل الماء أوالهواء، وهو غير قابل للفناء. واعتبرت فلسفة انكسمند ريس في حينها ثورة على الأساطير التي تتكلم عن نشأة العالم. لقد كان يتصور أن اللامحدود متحرك، قد خرجت منه كرة من اللهب، ثم انفجرت إلى أجزاء كثيرة، وأصبح كل جزء منها في صورة دائرة بواسطة الحركة. وفي تفسيره لأصل العالم سبق انكسمندريس النظريات الفلكية الحديثة التي تقول بأن أصل العالم هو الانفجار الكبير Big bang.

ويشير بعض المفكرين إلى أن انكسمندريس كان صاحب نظرية في التطور، وكان يعتقد بتطور الكائنات الحية، وبتلاؤمها مع البيئة التي تعيش فيها. وقال إن أول ما ظهر من الكائنات الحيَّة على الأرض كان الأسماك، وآخرها الإنسان، وكان يذهب إلى أن الأرض في البدء كانت سيالة ومع الجفاف التدريجي عن طريق التبخير تولدت الكائنات الحية

من الحرارة والرطوبة، وكانت الكائنات الحية الأولى بدائية ثم تطورت إلى أجهزة عضوية أرقى من خلال التكيف مع بيئتها. وكان الإنسان سمكة في الماء، ومع الجفاف وجدت مناطق من الأرض عالية جافة فتحولت بعض زعانف الأسماك إلى أطراف لتلائم الحركة على الأرض، وهكذا اكتشف انكسمندريس نظرية النشوء والارتقاء قبل داروين بضربة حظ دون أن يدري. ومن أقواله: «إن كل ما ينشأ يصيبه الفناء، وكل ما يولد جدير بالموت».

3 ـ **انكسمانس**: لقد كان من سكان مدينة مليطة وولد حوالي العام 558 ق.م. ومات حوالي 524 ق.م. واتفق مع الآخرين على أن المبدأ الأول للكون مادي، وقال بأن التخلخل هو مثل الحرارة المتنامية، وأن التكثيف هو البرودة المتنامية، وأن الهواء بالتخلخل يصبح ناراً، والنار المتولدة للأعلى على الهواء تصبح نجومًا، وبالعملية العكسية الخاصة بالتكثيف يصبح الهواء أولاً سحبًا، وبالدرجات الأشد من التكثيف يصبح ماءً وصخوراً على التعاقب، وأضاف أن العالم يدور في مجرى الزمن من جديد ويستحيل إلى هواء أولي. ولقد قال أيضًا بنظرية العوالم اللامتناهية وهذه العوالم متعاقبة.

المدرسة الفيثاغورية

«تناسخ الأرواح»

فيثاغورس :

قد يبدو غريبًا أن نفكر أن فيلسوفًا إغريقيًا عاش منذ 2500 عام تقريبًا، لا يزال يلعب دوراً في تعليمنا الحالي، بيد أن هذا حقيقي بالنسبة لفيثاغورس، الذي ولد حوالي العام 580 ق.م. في جزيرة «ساموس» ببحر إيجه، ولسوء الحظ، لم يُعثر له على أية مؤلفات. ومعظم ما نعرفه عنه نُقل إلينا عن طريق كُتَّاب متأخرين. وكما هي الحال مع العظماء، فإن الحقائق تختلط مع الأساطير في قصة حياته.

لم يكن فيثاغورس مولعًا بالأعداد والهندسة فحسب، بل والعلوم الأخرى التي كانت معروفة وقتئذ، وكان شغوفًا بالدين. ومن المرجع أنه توسع في تعلم الموسيقا ودرس العلاقة بينها وبين الحساب، وهي من أهم اكتشافاته.

أسس فيثاغورس مدرسته حوالي 529 ق.م. في «كروتونا» وهي ميناء إغريقي مزدهر في جنوب إيطاليا، وسرعان ما التحق بها 300 شاب. وكانت أقرب إلى أن تكون فرقة دينية من كونها مدرسة، فلقد كان أعضاؤها يتعارفون بإشارة سرية، وكانوا يشتركون في تملك جميع الأشياء، وتعاهدوا على أن يعاون بعضهم بعضًا. وكانت موضوعات الدراسة هي درجات الحكمة الأربع: الحساب، والهندسة، والموسيقا، والفلك، وواجبات الإنسان نحو أخيه والآخرين. وكان يفترض في هؤلاء التلاميذ أن يمارسوا فضائل المروءة والتقوى والطاعة والإخلاص، أي جميع الفضائل في المثالية الإغريقية للرجل الطيب الشجاع.

ومن المعتقدات الرئيسة لدى فيثاغورس «تناسخ الأرواح» (Transmigration of souls)، أي أن روح الإنسان تنتقل عند موته إلى جسم آخر، بشري أو حيواني. وكان يعتقد بأن الروح لا تموت، وأن كل شيء يتحول. وقد تكمن روح الإنسان في جسد حيوان ثم تدعه إلى جسد إنسان، ومثلها الأنفاس تنتقل بين البشر والحيوانات دون أن تفقد ماهيتها، وتبقى الروح هي نفسها دائمًا مهما انتقلت في أجساد مختلفة.

وكان فيثاغورس يعتقد أنه لا يمكن للروح أن تتحرر من الجسد وتفوز بالخلود في السماوات إلاّ بعد حياة نقية. والحياة النقية كانت تعني حياة التقشف. ولكن الكثير من القواعد التي وضعها فيثاغورس كانت تشبه الطقوس البدائية، فعلى سبيل المثال: كان من المحظور على التلاميذ أن يأكلوا الفول، أو يكسروا الخبز، أو يقلبوا النار بقضيب من الحديد، أو يلتقطوا ما وقع على الأرض! وكان يعتقد أن الموسيقا بالغة الأهمية في السمو بالروح. وعلى ذلك درس التلاميذ نظرية الموسيقا. وكان من

تعاليمه أن السماء كلها تتكون من «مقياس» أو «عدد موسيقي». وكان فيثاغورس من أوائل الذين أيقنوا أن الأرض والكون مستديران. أما مريدوه فكانوا يعتبرونه نصف إله.

وانغمس الفيثاغوريون في السياسة، وكانوا كلما اكتسبوا سلطانًا، أظهروا الاحتقار للجماعات الجاهلة وغير الفلسفية، التي لا تستطيع أن تحيا حياة التأمل الرفيعة. مما أدى إلى سقوطهم، بعد أن ثار الناس عليهم، ونُفي فيثاغورس، حيث توفي وهو في سن الثمانين. وبعد مئتي عام من وفاته، أقام مجلس الشعب تمثالاً له في روما، تكريمًا له بوصفه «أحكم وأشجع الإغريق». ويرجع إلى فيثاغورس الفضل في تعريف كلمة الفلسفة، وهو أول من قال إنها «محبة الحكمة» (فيلو: محبة، سوفيا: الحكمة).

وكان فيثاغورس يعتقد أن أصل العالم هو «العدد» الذي هو أحكم ما في الوجود، وأن أجمل ما في الكون هو «الانسجام». والجديد في الفلسفة الفيثاغورية، القول بوجود نسب بين الأشياء تشبه النسب الرياضية والموسيقية.

وقد تصور فيثاغورس الأعداد على أنها امتداد، والعدد ليس في الحقيقة الرقم الحسابي ولكنه يرمز إلى شكل وحجم هندسيين. والأعداد هي علل وجود الأشياء من حيث إنها تحدد مساحتها. ولم يكن العدد - بالنسبة للمدرسة الفيثاغورية - فكرة مجردة أو مثالاً مجرد، ولكنه عدد مجسم في المكان له امتداد وشكل وحجم.

ويرجع إلى فيثاغورس الفضل في اكتشاف النظرية الهندسية الشهيرة باسمه، التي تقول إن وتر المثلث قائم الزاوية يساوي مربع الضلعين

الآخرين، ويحكى أنه قد اعتبر هذه النظرية وحيًا من الآلهة. ويعتقد فيثاغورس أن هذا العالم لا فراغ فيه، ويملؤه الهواء اللامحدود، وهو الذي يفصل بين الأشياء بعضها عن بعض. كما يعتقد أن باطن العالم يحتوي على نار كامنة. وهي في مركز الأفلاك، ويسميها فيثاغورس بصورة رمزية «أم الآلهة»، وهو يعتقد أن عرش زيوس هو بجانب هذه النار، وأنه نقطة الاتحاد والانسجام بين جميع الموجودات.

وكانت فكرة الدورات الزمنية من بين الأفكار السائدة في هذه المدرسة، وكل واحدة من هذه الدورات تسمى «السنة الكبيرة»، ينتهي فيها العالم ليبدأ دورة جديدة. ومن هنا نستطيع أن نقول إن عدد الأفلاك يجب أن يكون متناهيًا، وهي موجودة على هيئة مثلث تتوسطه النار، وحول النار تنتظم حركة الأفلاك وعددها عشرة وحركتها دائرية.

وحسب فيثاغورس فإن الزمن ينساب كالنهر الذي لا نستطيع إيقافه، فالماء المتدفق كما الساعات المتتالية، فلا نستطيع إرجاع الموجة إلى الوراء، كما لا نستطيع إرجاع الزمن للوراء، ويصبح ما حدث منذ قليل بعيداً ثم أبعد.

وكانت المدرسة الفيثاغورية تعتقد أن الحركة هي طبيعة الموجودات، لا السكون، وأن جميع الموجودات تصدر عنها أصوات هي عبارة عن «النغم الموسيقي» في هذاالعالم، والأنغام التي تصدر عن القيثارة صورة مصغرة للأنغام التي تملأ العالم، ويوضح فيثاغورس أن سبب عدم استطاعتنا سماع تلك الموسيقا الكونية هو أن السمع لا يدرك النغم إلا عندما يسبقه أو يتبعه السكون. وهذا النغم الموجود في العالم هو نغم مستمر، وما من إنسان على هذه الأرض قد أدرك السكون السابق على

هذا النغم، ولذلك فنحن لا ندرك بالسمع هذه الموسيقا الكونية.

وكان فيثاغورس يعتقد أن المخ مصدر التفكير، مؤكداً أن كل خلل يطرأ على المخ لا بد وأن يؤثر على التفكير. كما كان يعتقد أن سبب الإبصار هو نار موجودة في العين تضيء الأشياء الموجودة خارجها. وأن التفكير يبدأ من الإحساس وينتهي بالذاكرة.

وفسَّر فيثاغورس الموت على أنه انفصال في الذاكرة يحدث عندما تعجز النفس عن تذكر الماضي لكي تتصل بالمستقبل. وكان أول من نادى بعدم أكل لحوم الحيوانات، واعتبر أن أكل اللحم هو تدنيس للجسد البشري، ونادى بأكل الغلال والفاكهة التي تُثقِل غصون الأشجار. وقال بأن الحيوانات الكاسرة هي التي تأكل اللحوم، مثل الأسود والنمور، فيما تكتفي الحيوانات الأليفة بأكل النباتات. فطالما توجد إمكانية لأن نحيا دون أن نسد رمقنا بالتهام كائن حي آخر فلماذا إذن لعق الدماء؟

هيرقليـــطس

«صراع الأضداد»

ولد هيرقليطس في مدينة أفنوس حوالي سنة 535 ق.م. أيام حكم الملك داريوس الأول، ويبدو أنه كان معاصراً لبرمنيدس الإيلي، وهو يُعتبر من أكبر الفلاسفة اليونان، ويسود الاعتقاد أنه عاش حتى سن الستين، وهذا يجعل وفاته العام 475 ق.م، وكان أكثرهم عبقرية. ولقد عبر عن أفكاره الفلسفية في بحث مكتوب نثراً كان معروفًا أيام سقراط، ولم يتبق لنا منه سوى شذرات. وقال سقراط عنه:. إن ما فهمه منه كان رائعًا، وإن ما لم يفهمه منه أيضًا رائع بالمثل.

وكان هيرقليطس معاديًا للمدرسة الإيلية، فالإيليون ذهبوا إلى أن الوجود وحده موجود، وأن الصيرورة غير موجودة، وكل تغير وهم، أما هيرقليطس فالصيرورة عنده وحدها هي الموجودة، والثبات والوجود ليسا إلا وهمًا. وتدور فلسفة هيرقليطس حول أربع مسائل رئيسة هي :

1 ـ الحرب هي أصل لجميع الأشياء.

2 ـ لا بد من وحدة تجمع هذه الأشياء.

3 ـ الوجود في تغير دائم وانسياب مستمر.

4 ـ نسبية الأمور.

بين هيرقليطس أهمية القانون للدولة بأنه في منزلة الفهم للإنسان، وأنه إذا كانت الأسوار تقي المدينة أعداءها فإن القانون يضمن النظام في الداخل، ومن ثم وجب على الشعب أن يناضل في سبيل حماية الأسوار وفرض احترام القانون.

وكان يعتقد أن الشمس تولد كل يوم، ويقول إن غروبها معناه انطفاء هذه الشمس لكي تشرق من جديد في فجر اليوم الثاني، إشارة إلى التتابع والتوالي بين الحياة والموت. والشمس التي تبدو للعين المجردة صغيرة الحجم، هي كبيرة، ومن أشعتها يتولد البخار في الهواء، وهذه الأبخرة تؤثر على الكواكب الأخرى، وعندما ترتفع درجة الرطوبة في الهواء يكون الشتاء، وإذا انخفضت يكون الصيف. والقمر يشبه الدن، وهذا الوعاء متحرك وهذه الحركة هي التي تفسر لنا أشكاله المختلفة وكيف أنه يبدو أحيانًا بدراً، وأخرى هلالاً وقد يختفي تمامًا.

وكان هيرقليطس يعتقد أن الأصل الأول للأشياء هو النار، وأن العالم ليس من صنع الآلهة والإنسان، ولكنه كان دائمًا كما هو الآن وبالصورة نفسها. كما كان يعتقد أن النفس تعود بعد الموت إلى النار الأولى، حيث تجتمع النفوس كلها في هذا الأصل الواحد. واعتبر أن هناك تبادلاً واتصالاً بين جميع الأشياء لأن أصلها واحد وهو النار. وتعبِّر هذه النار

المشتعلة والمتحركة عن نظرية ديناميكية للوجود، فحياة النار هي عبارة عن حركة دائمة، وبواسطة هذه الحركة تُخلف جميع الأشياء عبر عمليات التكثيف والتخلخل للهواء مع النار. وتتجه هذه النار إلى أعلى وقد تحدث الأبخرة التي تصعد وتصبح سحبًا، ثم تهبط إلى أسفل وتتساقط الأمطار، فتتكون البحار والأنهار، ثم يموت جزء من هذا الماء فتتكون الأرض. ويعتقد هيرقليطس أن النار تتصف بخاصتين أساسيتين، الأولى هي الرغبة، والثانية هي الشبع. فالرغبة معناها أن النار تفتقر إلى شيء آخر غيرها، وإلى وجود العالم الذي ينقصها. أما الشبع فيعني أن النار الكلية تحوِّل الأشياء وتصهرها في ذاتها، وكأنها في هذه الحالة تكتفي بذاتها كأصل للأشياء.

ولقد تكلم هذا الفيلسوف عن الأضداد، ومعناها أن الأشياء تنتقل من حالة إلى أخرى مضادة، وتتغير كيفياتها فتكون الصيرورة، وهذه الصيرورة لا تحدث إلا طبقًا لنظام طبيعي، فالنار تحكم الأضداد بعدل وحكمة. ويعتمد التغير على الصراع الناشئ بين الأضداد التي - بدونها - لا يكون هناك أي معنى للتغير ولا للصيرورة، فالأشياء تنتقل من حالة إلى أخرى، ويصبح الشاب شيخًا والحياة تنقلب إلى موت.

ولا يكتفي هيرقليطس بالقول بأن الأشياء تنتقل من حالة إلى أخرى مضادة، بل آنٍ واحد تكون موجودة وغير موجودة، وتعاصر الوجود واللاوجود هو معنى الصيرورة. فالصيرورة هي قيام الأشياء وانقضاؤها، انبعاثها وانحلالها، وهي تحتوي على الوجود واللاوجود، وهذا يعني تحوُّل الواحد إلى الآخر، ولكن ليس بمعنى تحوُّل الوجود إلى العدم، إنما يعني أن الوجود واللاوجود هما في كل شيء في الوقت نفسه.

والأشياء على حد تعبير هيرقليطس تسيل، أي دائمة التغير أو في

حالة سيولة دائمة. ومن أقواله المأثورة في إحدى الشذرات التي وُجدت من كتاباته: «لست أرى إلا التحوُّل والتغيُّر. لا تخدعوا أنفسكم، ولا تلوموا حقيقة الأشياء، بل لوموا قصر نظركم إن ظننتم أنكم تبصرون أرضًا ثابتة في بحر الكون. أنتم تخلعون على الأشياء أسماء وكأنما هي ستبقى إلى الأبد. ولكن النهر الذي تنزلون فيه للمرة الثانية ليس هو نفس النهر الذي نزلتم فيه أول مرة». والزمن في اعتقاده هو العامل الأساسي للتغير، وهذه الحركة التي مصدرها النار، تكون أزلية مثل النار نفسها.

والله بالنسبة لهيرقليطس هو «الليل والنهار، الشتاء والصيف، الحرب والسلم، الوفرة والقلة، الجوع والشبع». وهذه المعاني غامضة وقد قال هيرقليطس إنه لا يفصح عن الفكر ولا يخفيه، ولكنه يشير إليه». وكان يعتقد بوجود مبدأ عقلي يحكم الوجود، وهو القانون الإلهي الذي استمدت منه جميع القوانين الطبيعية التي تحكم العالم. وهذا القانون هو الذي يحقق النظام والانسجام بين الأشياء. إنه «اللوغوس» (logos)، أي العقل.

يقول هيرقليطس إن للوجود جوهراً واحداً هو النار وإنه يتصف بالعقل «اللوغوس». والمعرفة الصحيحة عند هذا الفيلسوف هي معرفة الكلّي والعام، أما معرفة الجزئيات والأفراد فلا تؤدي إلى الحقيقة.

وكان من نتيجة نظرية هيرقليطس في المعرفة أن أصبح المعقول أسمى من المحسوس. وهو ينسب وهم الثبات إلى الحواس، مضيفًا أنه بالعقل نرتفع إلى معرفة قانون الصيرورة، وفي استيعابه طريق الإنسان إلى السعادة. وهو يرى أن الشر هو المقابل للخير، والألم هو المقابل للذّة، وكلاهما ضروريان لتكوين التناغم في العالم.

المدرسة الإيلية Eleatic

« الوحدة والثبات في الوجود »

سُمي الإيليون بهذا الاسم نظراً لأن مقر مدرستهم بلدة إيلية في جنوب إيطاليا، وكان برمنيدس وزينون الممثلين الرئيسين للمدرسة، وكلاهما من مواطني إيلية.

1 ـ اكسينوفان الكولوفوني

« المعرفة المنقوصة »

هو الأب الروحي للمدرسة الإيلية، لأنه أول من نادى بأن الوجود واحد. ولد في مدينة أيونيا، حوالي 576 ق.م. ثم هاجر إلى صقلية، عندما انهزمت أمام الفرس في سنة 545 ق.م، ثم انتقل إلى إيطاليا، وعاد إلى إيلية.

وانقضت حياته الطويلة في التجوال في المدن الهيلينية كشاعر ومغن، وكان ينشد الأغنيات في الموائد والاحتفالات. وجرى التعبير عن فلسفته شعراً، وكان يهاجم الأفكار الدينية الشعبية بهدف التوصل إلى تصور أكثر نبلاً عن الآلهة.

يرى اكسينوفان أن الفيلسوف هو الذي يتعالى على المحسوس ويبحث عن قيمة أسمى من كل القيَم الحسية، ولا يخضع للمعتقدات الشعبية، ويستخدم عقله في السعي وراء معرفة الحقيقة. كما أن الفيلسوف هو من يعتقد أن أصل الحكمة هو التفكير، وأن موقف الفكر من الأشياء هو موقف منطقي سليم.

ويعتقد أن المعرفة الإنسانية لا يمكن أن تكون مطلقة، ويقول: من العبث أن يبحث الناس في هذه الحياة عن حقيقة مطلقة، إنما يجب أن يبحثوا عن معرفة عقلية نسبية، هي كل نصيبهم في الحياة. ويضيف أن الحقيقة لا تأتي إلا عن طريق الإلهام.

ويعتبر أكسينوفان أن الأخلاق هي التي ترفع الإنسان من المرتبة الحيوانية إلى المرتبة الإنسانية، ومن المرتبة الحسية إلى العقلية، ويقول إن على الإنسان أن يهتم بجمال الروح أكثر من الاهتمام بجمال الأجسام.

ويذهب أكسينوفان إلى أن الناس قد جعلوا الآلهة على أشكالهم وصورتهم. ومعنى ذلك أن الزنوج يرون آلهتهم بأنف أفطس وبشرة سوداء، وغيرهم يراها بشعر أشقر وعينين زرقاوين.

وعلى ذلك، فإن الحيوانات إن أرادت أن تختار آلهةً لصوَّرتها على أشكالها، كما نفعل تمامًا، ولن تكون آلهة الأبقار إلا مثلها. ويقول أكسينوفان أيضًا إنَّه يجب علينا أن نقدِّس الآلهة ونحترمها، ولكن هذا

التقديس يجب أن يكون روحيًا ومعنويًا. بمعنى أن نتقرب إليها بعمل الخير وتحقيق العدالة بين الناس. ويقال إنَّ أكسينوفان هو أول من قال بأن الله واحد، وأنه سبق برمنيدس في هذا الرأي.

2 ـ برمنيدس الإيلي

«الوجود موجود»

ولد حوالي العام 514 ق.م.، ويرى أنه على الفيلسوف أن يتعلم كل شيء، وأن يتعرف على كل الآراء حتى يستطيع بعد ذلك أن يدرك الحقيقة، كما عليه أن يكون حذراً من الآراء العامة والمعتقدات الشعبية.

وكان في مطلع شبابه فيثاغوريًا، ولكنه تمرد على تلك الفلسفة وصاغ فلسفته الخاصة، وكان يحظى بتقدير كبير بسبب عمق تفكيره، وكان أفلاطون يشير إليه دائمًا بكل احترام وتبجيل. وترد فلسفته في قصيدة تعليمية فلسفية، تنقسم إلى قسمين، ويعرض في القسم الأول «طريق الحق»، وفي القسم الثاني يعرض الآراء الزائفة ويسميها «طريق الظن».

وهكذا تنقسم المعرفة عنده إلى نوعين: المعرفة الظنية والحقيقة. وبينما يأتي الظن أو الرأي عن طريق الحواس، أو نقلاً عن الآخرين.. فإننا نحصل على الحقيقة بواسطة العقل.

وهناك اختلاف في المنهج بين الاثنين، فمنهج العقل يختلف عن منهج الحواس.

كما أن المعرفة الظنية تكون دائمًا متغيرة، بينما الحقيقة مطلقة وثابتة.

ويتصل البحث عن الحقيقة بالبحث عن الوجود، ونحن نحكم على الوجود بأنه موجود ولا يمكن أن يكون غير ذلك.

أما في مجال المحسوسات، فالأشياء موجودة وغير موجودة، لأنها تتغير وتفنى. والوجود هو وحده موضوع التفكير، وهو وحده الحقيقة. ويعدُّ برمنيدس صاحب النظرية الأنطولوجية للحقيقة وهذا هو معنى عبارته المشهورة: «الأمر هو نفسه أن يكون الشيء موجوداً أو أن يكون موضوعًا للتفكير»، وتفسير ذلك أن ماهية الوجود هي ماهية معقولة يمكن إدراكها بالعقل. وبالتالي فإن الحقيقة العقلية أساسها حقيقة الوجود، وبدون الوجود لن يكون التفكير العقلي ممكنًا.

ونحن نجد عند برمنيدس ما يسميه بالقانون الأنطولوجي، ونصه الآتي:

«من الضروري أن يكون الوجود موجوداً على الإطلاق، ولا نستطيع أن نقول أن اللاوجود هو الأصل لما هو موجود». وهذا القانون يفرض وجود ضرورة عقلية تجعلنا نحكم بأن الوجود هو الموجود واللاموجود غير موجود.

والحكم المنطقي عند هذا الفيلسوف يقوم على أساس مبدأ التناقض. لأنه يستحيل أن يكون الشيء موجوداً وغير موجود في الوقت نفسه. والقول بأن الوجود موجود هو حكم مثبت، والإثبات سابق على النفي الذي ينفي الوجود.

ولا يمكن أن تصدر الحقيقة عن النفي، بل عن الإثبات والتأكيد. والوجود البرمنيدي موجود منذ الأزل وإلى الأبد، بل هو موجود قبل وجود الزمان.

والوجود ليس له ماضٍ أو حاضر أو مستقبل لأنه في حضور أزلي. وطبيعة هذا الوجود واحدة ثابتة لا تتطور ولا تتغير، وهو وحدة متجانسة. أما الموجودات، فهي حاضرة في الوجود منذ الأزل.

وهذا الوجود ـ الموجود بالضرورة ـ، لا بد وأن يكون كاملاً، وكل ما هو كامل وغير ناقص لا يخضع للفناء، وهو لا نهائي لأن اللانهائي في نظر القدماء هو الذي يفتقر إلى موجودات أخرى خارجة عنه. ويقول برمنيدس عن الوجود «إنه كالكرة المتناسقة الأجزاء المغلقة على نفسها، الثابتة غير المتحركة».

ويعتقد برمنيدس أن العالم الطبيعي يملؤه الأثير، وهو ألطف من الهواء والنار، وهو أصل العناصر الطبيعية الأخرى. والعالم المحسوس هو عالم الحركة والتغيُّر، وهو مصدر المعرفة الظنية والحسية، ولا ينكر الحواس والعالم الحسي، إنما يجعل المعرفة العقلية هي وحدها التي توصلنا إلى الحقيقة.

والحواس عند برمنيدس هي مصادر كل وهم وخطأ، ولا تكمن الحقيقة إلا في العقل.

3 ـ زينون الإيلي Zenon

«الوجود واحد»

كانت كتب زينون تدور حول فكرة أساسية وهي أن «الوجود واحد لا متعدد، وساكن غير متحرك أو متغير».

وقد اشتهر بمنهجه الجدلي، فكل سؤال فلسفي له في نظره إجابة محتملة، والاحتمال معناه أن الفكر لا يستطيع أن يحكم على أي شيء بالإثبات أو النفي.

حجج زينون ضد التعدد :

1ـ إذا سلمنا أن الكثرة موجودة، فيترتب على ذلك أن تكون إما متناهية في العدد أو لا متناهية. إذا كانت متناهية فمعنى ذلك أنها لا تقبل الكثرة أو القلة، وهذا يتناقض مع فكرة الكثرة. أما إذا كانت لا متناهية فمعنى ذلك أننا لا نستطيع عدّها لأنها تكثر إلى ما لا نهاية وهذا خلق.

الفرضان يؤديان إلى نتيجتين خاطئتين. وإذا كانت النتيجة خاطئة فلا يمكن أن تكون المقدمة صحيحة. وبذلك فلا وجود لكثرة في الوجود.

2 ـ الأشياء الكثيرة، إما أن تكون لا متناهية في الصغر أو لا متناهية في الكبر. ففي الحالة الأولى، ليس لها حجم أو مقدار، ولا يمكن إضافة بعضها إلى بعض. أما في الحالة الثانية فمجموعها يجب أن يكون لا متناهيًا، وهذا خلق، لأن ما له كبر يجب أن يكون له حجم وشكل. والحجم متناه ومحدود. ولأن النتيجتين متناقضتين، فلا بد وأن تكون المقدمة كاذبة.

3 ـ كل موجود، هو موجود في مكان، والمكان يجب أن يكون موجوداً في مكان، وهكذا إلى ما لا نهاية، ولا بد وأن يكون الوجود الذي يشملها واحد.

حجج زينون في إبطال الحركة :

ساق زينون الإيلي حجتين في هذا الصدد :

أ. القسمة الثنائية، إن الجسم لا يقطع مسافة إلا إذا قطع أولاً نصفها. ولا يقطع نصفها إلا إذا قطع نصف النصف، وهكذا إلى ما لا نهاية.

ب ـ حجة أخيلس والسلحفاة : إن أخيلس، البطل اليوناني وأسرع

العدائين في زمانه، لن يسبق السلحفاة إذا افترضنا أنها تتقدمه بمسافة قصيرة. ذلك لأنه إذا أراد أن يجتاز هذه المسافة فيجب أن يجتاز أولاً نصفها، ثم نصف نصفها، وهكذا إلى ما لا نهاية.

يقول زينون إن السهم الطائر، في أية لحظة من طيرانه، يجب أن يكون في مكان واحد، لأنه لا يمكن أن يكون في مكانين مختلفين في الوقت نفسه.

وفكرة المكان اللامتناهي والزمان اللامتناهي نستطيع تصورها في ذهن زينون، عندما يقول بأنه يجب أن يكون في الكون عدد محدد من الأمكنة وليس أكثر، وهذا يعني ضرورة وجود قدر محدد ومحدود من المكان، ومن ثم فإن المكان محدد، ومن جهة أخرى من المستحيل تصوُّر حد للمكان، ووراء الحد يجب أن يكون هناك مكان آخر، ولهذا فإن المكان لا متناهٍ، وَتَصَوُّرُ حَدٍّ للمكان أو الزمان مسألة مستحيلة.

4 ـ مليسوس Melissus :

هو الممثل الأخير للمدرسة الإيلية. ولد في مدينة ساموس سنة 442 ق.م. ويعتقد أن التجربة الحسية هي نقطة الابتداء في التفكير الفلسفي. وتثبت هذه التجربة أن جميع الأشياء متغيِّرة، ومعنى ذلك أن المعرفة التي لدينا عن التعدد والتنوع ليست معرفة حقيقية للوجود والواقع، لأن الوجود الحقيقي يبقى كما هو وعلى النحو الذي هو عليه. أما التغيُّر فيؤدي إلى الموت والفناء.

أمبادو قليدوس

«الحب والكراهية»

ولد هذا الفيلسوف حوالي 495 ق.م. وتوفي حوالي 435 ق.م في أغريجنا، وهي من أغنى مدن صقلية. قال المعاصرون له إنه كانت له القدرة على إحياء الموتى، وإنه كان يأتي بالمعجزات. ومما ضاعف من حب الناس له أنه ضحّى بثروته كلها من أجلهم.

وقال أمبادو قليدوس عن نفسه:. إنّ له قوة خارقه يُؤَثِّرُ بها على الأشياء، وإنه كان يعالج المرضى ويشفيهم. وكان يعتقد أن تعدد الأشياء لا يصدر عن شيء واحد، ولذلك فهو يقول بعناصر أربعة هي البذور التي خرجت منها الأشياء وهي: النار والماء والتراب والأثير. وهو يرى أن الآلهة الإغريقية كانت ترمز إلى هذه العناصر الأربعة فهي موجودة منذ الأزل

وإلى الأبد. ولكل عنصر صفاته الخاصة التي تميِّزه عن سائر العناصر الأخرى. وأحيانًا يتفوق عنصر على العناصر الأخرى فتتحدد طبيعته. ويعتقد أن كل شيء في الوجود هو عبارة عن اجتماع واختلاط لهذه العناصر بنسب مختلفة، وهذه النسب هي التي تدفع إلى القول بأن هذه العناصر تختلط، كما تختلط الألوان في الرسم، وكأن الاختلاف بين الأشياء، إنما هو اختلاف بين تنوع الأشكال لا اختلاف في الأصل.

ويقول أمبادو قليدوس:- إن الحب هو مبدأ اجتماع الأشياء، وهو الانسجام والحب. أما مبدأ التنافر والاختلاف فهو الكراهية، وبفضل الكراهية تتنافر الأشياء وتتكاثر وتتعدد وتتجزأ. هذا بينما الحب هو الذي يعيد إليها وحدتها، ولا شيء يمنع من وجود المبدأين معًا، ولكن أحيانًا يسود الواحد على الآخر.

وكان يعتقد أن الكون كروي الشكل يملؤه الهواء، الذي بفضله انتشرت النار التي كانت في باطن الكون إلى جوانبه. والنار في نظره قد لطُفت الهواء فأصبح أثيراً في السماء، وعندما يختلط الهواء بالنار تتولد حركة الأفلاك حول الأرض، وهذه الحركة هي علة تتابع الليل والنهار واختلاف فصول السنة.

ومن آرائه أن الأرض ساكنة لا تتحرك، مثل الأفلاك، وأنها بيضاوية الشكل وليست كروية، وكان أمبادو قليدس يؤمن بأثر البيئة على الكائنات الحية في تحقيق غايتها، وبأنَّ لكل كائن حي بيئة معينة.

والنفس في نظره آتية من جوهر إلهي، وهناك روح مقدسة تملأ الوجود، وتخضع لها النفوس الإنسانية. كما كان يؤمن بتناسخ الأرواح.

المدرسة الذرية Atomistic

«الوجود ذرات»

1 ـ **ليو قبوس**: هو مؤسس المدرسة الذرية، من أصل مليطي، وقد تأثر بفلسفة برمنيدس وأنشأ مدرسته في مدينة أبديرا وكان تلميذه ديمقريطس، ولا يُعْرَفُ شيءٌ عن حياته، كما لا يُعْرَفُ تاريخُ مولده أو وفاته، ولكن يسود الاعتقاد بأنه كان معاصراً لانكساجوراس، ولقد عاش حتى سن متقدمة تقدر من 90 إلى مائة عام.

ويؤكد أرسطو أن هناك صلة وثيقة بين المدرسة الذرية والمدرسة الإيلية، فلقد أراد ليو قبوس أن يفسر وحدة الموجودات على أساس القول بالذرات، وبأن الوجود يتألف من كثرة لا نهائية من الأجزاء التي لا تُرى بالعين المجردة، ونظراً لصغر حجمها فإنها تتحرك في الفضاء أو الخلاء، وينشأ من اتحادها وانفصالها ما نسميه بالكون والفساد. ودراسة الذرة والخلاء تصبحان عنده موضوع الفلسفة. أما الظواهر المحسوسة للأشياء

فهي تخضع للمعرفة الظنية. ومن هنا أيضًا كان الشبه بينه وبين برمنيدس.

2 ـ **ديمقريطس**: ساهم مع ليوقبوس في صياغة الفلسفة الذرية، والمعتقد أن الأسس الجوهرية لهذه الفلسفة هي من عمل ليوقبوس، وأن ديمقريطس طبّقها وتوسّع فيها وجعلها نظرية شهيرة.

والذرات في نظر ديمقريطس غير منقسمة وغير محسوسة لتناهيها في الدقة، وتتحرك من تلقاء ذاتها، وفي رأيه أن في الكون خلاءً يسمح بحركة الذرات، وهذه الحركة على نحوين: الأول خاص بحركة الذرات الأولى في الخلاء. والثاني خاص بحركة الذرات من أجل تكوين العالم.

وبينما الحركة الأولى أفقية، فيها تصطدم الذرات بعضها ببعض، فيتكون عن هذا التصادم الحركة الثانية، وهي حركة دائرية أو على شكل دوامة. وهذه الحركة الدائرية هي التي يحدث عنها هذا الوجود.

ترى هذه المدرسة أن المطلق ليس واحداً، بل هو كثير بالضرورة بحكم أن الذرات كثيرة وعندئذ يصبح المطلق نسبيًا. ومن أهم الآراء التي قال بها أصحاب هذه المدرسة أن للذرة نواة، وهي مركز الثقل في الذرة.

ولقد اعتقد أصحاب المدرسة الذرية أن الأرض اسطوانية الشكل، وأن هذه الأسطوانة فيها فجوات تسقط فيها الأمطار، فتتجمّع البحار والأنهار.

ويقول أصحاب هذه المدرسة: إنَّ النفس تتألف من ذرات لطيفة ومتحركة، والنفس هي مبدأ التفكير ومبدأ الحياة والشعور؛ وعند الوفاة تتناثر ذرات النفس، ومن ثم فلا مكان لحياة أخرى.

وتعتقد هذه المدرسة بأن المادة، إذا كانت يمكن لها أن تنقسم، فإننا

سنصل إلى وحدات لا تنقسم، وهذه الوحدات التي لا تنقسم تسمى ذرات، وبالتالي فإن الذرات هي المكونات النهائية للمادة، وهي لا متناهية في الصغر ويصعب إدراكها بالحواس.

والذرات تترابط وتنفصل عن بعضها، وطالما أنها تترابط وتنفصل فمعنى ذلك أنه يوجد مكان خالٍ حتى تستطيع أن تُتِمّ الارتباط والانفصال فيه، ومن ثم فهناك حقيقتان مطلقتان، هما الذرات والمكان الخالي. ويؤكد الذريون أن المكان الخالي أو اللاوجود حقيقي، شأنه شأن الوجود، أي أن اللاوجود موجود أيضًا.

انكساجوراس

«عقل يدير العالم»

ولد في كلازومينيا في آسيا الصغرى حوالي 500 ق.م. وهو من أسرة نبيلة ويملك ثروة طائلة، وقد أهمل أملاكه من أجل المعرفة والعلم والفلسفة، وترك موطنه واستقر في أثينا. ولقد وجهت إليه تهمة الإلحاد والتجديف، وذلك بسبب قوله بأن الشمس هي حجر ملتهب أحمر وأن القمر مصنوع من الأرض. وكان اليونانيون يعتقدون أن الأجرام السماوية آلهة، وحتى أفلاطون وأرسطو اعتقدا أن النجوم كائنات إلهية. ووُجهت التهمة إلى انكساجوراس وحوكم وأُدين ولكنه هرب بواسطة صديقه السياسي بركليز، ومات وهو في الثانية والسبعين من عمره. ولقد كان انكساجوراس أول من أدخل فكرة «الغائية» إلى الفلسفة، وذلك باللجوء إلى التفسير بهدف إظهار الغرض العقلي بالنسبة للأشياء وبالتطلع إلى غاياتها.

ولقد افترض انكساجوراس أن العقل والمادة موجودان منذ البداية جنبًا إلى جنب كمبدأين مطلقين أصليين. وقام مذهبه على وجود عقل يدير العالم نحو غاية محددة.

السوفسطائية Sophists

«الإنسان معيار كل شيء»

السوفسطائية "sophism"، ومعناها الأصلي: «التميز بالحذق والمهارة في الأمور»، ولكنها أخذت بعد ذلك تدل على القول المموّه أو القياس الخدّاع. وكانت تُطلق على تلك الحركة الفكرية التي انتشرت في بلاد اليونان عامة، وفي مدينة أثينا خاصة، إبّان السنوات الخمسين الأخيرة من القرن الخامس قبل ميلاد المسيح. وكان من زعمائها البارزين «بروتاجوراس» و«جورجياس».

وفي عصر السوفسطائية، انتقل مركز التفكير الفلسفي إلى الإنسان وأصبح هو محور التساؤلات والمناقشات. ولقد كان البحث في سلوك الإنسان وطبيعته، متروكًا لاهتمام الشعراء والأدباء. ويبدو أن الفلسفة لم تجد أن البحث في الأخلاق الإنسانية هو الهدف والغاية الأصلية من وجودها، فقد كانت تهتم بدراسة الظواهر الطبيعية في الكون، حتى تغيرت الأوضاع السياسية في البلاد، ونشبت الحروب الدامية بين اليونان والفرس، تلك الحروب التي استمرت من سنة 490 إلى 450 ق.م. ثم قامت الحرب بين أثينا وأسبرطة في ذلك الوقت واستمرت 27 عامًا وتزعزع الحكم الديمقراطي الأثيني بعد هزيمة أثينا أمام أسبرطة.

وظهرت طبقة من الأرستقراطيين الذين لا يخدمون إلا مصالحهم الشخصية. وأراد الشعب أن يستعيد حقوقه وحريته، ولذلك أصبح الإنسان محور عناية المفكرين والفلاسفة.

ولما أصبحت تلك الجماعة السوفسطائية تزدري البحث في الميتافيزيقا الخالصة، وتنفر من النظر في طبائع الأشياء وأصولها الأولى، ويعنيها تدبير المدينة أكثر ما يعنيها النظر العقلي الصرف، فقد أخذ السوفسطائيون يجوبون البلاد اليونانية ملتمسين التلامذة والمستمعين، وينتقلون من مدينة إلى أخرى، فيلقون على الناس، نظير أجور معلومة، دروسًا في الحكمة والسياسة والفصاحة، ويعلمونهم كيف يتوصلون إلى النجاح، وكيف ينصرون أو ينقضون أي رأي كان ، من غير مراعاة لحق أو عدل.

ويرجع منهج السوفسطائيين إلى المناظرة والجدل، ومعارضة الرأي بالرأي، ومقارعة الحجة بالحجة. ولذلك كان سبيل السوفسطائي في دروسه إما أن يلقي خطبة صافية، وإما أن يدلي باعتراضات على آراء غيره، أو يوجّه الأسئلة والاستجوابات إلى تلاميذه ومستمعيه. وكثيراً ما يلقي السوفسطائيون الخطب الحافلة، التي هي في منزلة نماذج لما يستطيعون القيام بتعليمه في شتى الأغراض والموضوعات، فتراهم يخوضون تارة في مسألة من المسائل العامة، فلسفية كانت أو سياسية، وتارة يمتدحون أهل مدينة ما، أو يرثون أحد العظماء. وقد يتناولون موضوعات عادية أو تافهة فيخطبون مثلاً في مدح البراغيث وما إلى ذلك. وقد تناول السوفسطائيون كثيراً من الموضوعات التي اختلف فيها نظر الفلاسفة كالخير والشر والحسن والقبح.

وكان السوفسطائيون ينشدون ثقافة إنسانية جديدة، تجعل الإنسان مقياسًا لجميع الأشياء، كما قال «بروتاجوراس». فذهبوا إلى أن ما رآه كل واحد من الناس موجوداً فهو عنده موجود، وما رآه معدومًا فهو بالقياس إليه معدوم، ولا يتعدى هذا الحكم إلى غيره. ومعنى هذا أنهم «ينكرون حقائق الأشياء، ويزعمون أنه لا توجد حقائق متمايزة، فضلاً عن اتصافها بالوجود.. بل كلها أوهام لا أصل لها».

ويقول بروتاجوراس عن الآلهة: «أما الآلهة فليس في وسعي أن أعلم أموجودون هم أم غير موجودين.. تحول دون علمي بذلك موانع كثيرة.. قصر العمر، وغموض الموضوع».

ولبروتاجوراس عبارة ذائعة الصيت، تناقلها عنه المفكرون، وهي أن «الإنسان هو معيار كل شيء».

ويمكن تلخيص أهم آراء السوفسطائيين في ما يلي :

1ـ المعرفة: هي المعرفة الحسية التي تأتينا عن طريق الإحساسات.

2 ـ المعرفة الحسية ذاتية وليست موضوعية.

3 ـ الإحساس لا الفكر هو معيار الوجود.

4 ـ الإنسان هو معيار كل شيء في مجال المعرفة والحقيقة.

5 ـ سلوك الإنسان نابع من الطبيعة الإنسانية.

6 ـ الإنسان يسعى بطبيعته إلى اللذة.

7 ـ الإنسان لا يفعل إلا ما يكون نافعًا له.

8 ـ المنفعة الشخصية هي التي تحدد قيمة الأشياء.

وبالإجمال فإن السوفسطائيين لم يكونوا فلاسفة بالمعنى الدقيق للكلمة، فهم لم يتخصصوا في مشكلات الفلسفة الكبرى، كأصل الحياة والوجود والحقيقة، وكانت نزعاتهم «عملية» وهم يعلّمون أي موضوع مهما كان، ويكسبون الآخرين القدرة على الجدال لمواجهة أية قضية تثار، ولذلك كانوا يركزون طاقاتهم على تعلُّم البلاغة والخطابة.

سقـــــــــراط

«الفضيلة هي المعرفة»

ولد سقراط Socrates في أثينا حوالي العام 470 ق.م ابنًا لمثّال، وكانت أمه تعمل قابلة، ولا يعرف عن حياته الأولى سوى أنه عندما بلغ منتصف العمر أصبح شخصًا مرموقًا في المدينة، إذ جعلت منه أفكاره الشاذة وشخصيته الغريبة رجلاً مشهوراً. كان قبيح المنظر، جاحظ العينين، أفطس الأنف، لكنه يملك قدرات خارقة للعادة من حيث ضبط النفس، والجلد.

ولقد اشتهر سقراط في معارك اليونانيين ضد الفرس، وكانت شجاعته مضرب المثل وحديث الجميع، وأراد الشعب أن يكرّمه فاختاره عضواً في مجلس الخمسمائة، وكان عضواً في مجلس الثلاثين. وحاول في هذه المجالس السياسية أن يدافع عن الديمقراطية وحقوق الشعب، فطالب بالعدالة الاجتماعية، وخلاصة القول إنه كان يطالب بتعديلات كثيرة في الحياة النيابية. وكان اعتراضه على الكثير من النظم السياسية التي كانت موجودة في ذلك الوقت من أهم الدوافع التي دفعت الشاعر «مليتس» إلى كتابة العريضة التي اتهم فيها سقراط بالإلحاد وإفساد الشباب.

كانت الفلسفة قبل عصر سقراط تختص أساسًا بمسائل مثل كيف وُجد العالم؟ ومن أي شيء صُنع؟ ولقد اقتنع سقراط بأنه من المستحيل الإجابة عن هذه التساؤلات، وبأن دراسة هذه المسائل لن تلقي أي ضوء على السبيل الحق للحياة. واتخذ سقراط لفلسفته شعار «معبد دلفى»(١): «اعرف نفسك بنفسك»، وأراد بذلك أن يغوص في أعماق الطبيعة البشرية والنفس الإنسانية.

وقد آمن سقراط بأن الآثام كلها وليدة الجهل، وأن الناس لو عرفوا فقط ما هو الحق، لما وجدوا صعوبة في اتباعه. وهذا هو معنى القول المأثور الذي يعزى إليه: «الفضيلة هي المعرفة» و... «ما من أحد يرتكب الخطأ بمحض إرادته»، ومقولته: «من الأفضل أن تعاني الظلم من أن تمارس الظلم». وهكذا نجد أن سقراط قد أنزل الفلسفة من السماء إلى الأرض.. من أصل الموجودات إلى الطبيعة الإنسانية. ولقد اشتهر عنه سوء تقدير زوجه له، ومن أقواله المأثورة: «لقد أصبت بثلاث مصائب في حياتي: الجهل والفقر وزوجي، ولكني تغلبت على المصيبة الأولى بالدرس، وتخلصت من الثانية بحسن التدبير، أما الثالثة فلا سبيل للنجاة منها أبداً»

---

(١) معبد دلفى كانت تقطن به عرافة تدين بولائها للإله أبولو.

المنهج السقراطي

1ـ الحوار الفلسفي :

كانت الفلسفة قبل سقراط مجرد حديث للنفس عن الحقيقة والوجود، وكان الفيلسوف يقدم عرضًا ذاتيًا لآرائه. لكن الفلسفة مع سقراط أصبحت حواراً مع الآخرين، وليست بالتحديد تأملاً للذات مع ذاتها، وكان يحاور الناس ويناقشهم في كل مكان، في الأسواق والشوارع والبيوت وساحات القضاء، وكان الغرض من الحوار دعوة الناس جميعًا والشباب بخاصة إلى الفكر والفلسفة.

2ـ السؤال السقراطي :

تجلت عبقرية سقراط في السؤال الفلسفي الذي يوجهه إلى الآخرين، وتميّز هذا السؤال بخصائص واضحة، منها أنه سؤال موجّه بهدف معرفة الحقيقة. وأصبحت مهمة المفكر أن يبدأ بوضع السؤال قبل سرد الأفكار والآراء. ويمتاز السؤال السقراطي أيضًا بأنه سؤال عن «الماهيات» أي عمّا هو الشيء؟ والخطوة الأولى في المحاولة السقراطية هي إرغام الرجل على أن يرى بنفسه أن أفكاره الحالية خاطئة أو ناقصة. وفي سبيل ذلك كان سقراط غالبًا ما يستخدم نوعًا خاصًا من التندر بالذات أو التواضع، وهو المنهج الذي عُرِفَ باسم «السخرية السقراطية». ولقد منح ذلك سقراطًا سمعة عظيمة خاصة بين الشباب الذين طربوا لرؤية الأفكار العتيقة لشيوخهم تتحطم تحت وطأة سخرية سقراط.

3 ـ التهكم والتوليد :

اشتهر منهج سقراط بـ «التهكم والتوليد». فقد نشأ التهكم من اكتشافه لجهل الآخرين وعدم معرفتهم بحقيقة الأشياء التي يتحدثون عنها، والسخرية تعبر عن موقف سقراط من الجهل. وكانت حكمته وفضيلته في أنه كان يعلم أنه يجهل الحقيقة، بينما كان يدعي الآخرون معرفتهم بالحقيقة، وهم جاهلون بها. أما التوليد فإنه يعني توليد الأفكار من العقول.

محاكمة سقراط

كان العام 440 ق.م ختام هزيمة أثينا في الحرب البلوبونيزية ضد سبرطة "Sparta"، التي تطوع فيها سقراط كمحارب وطني. وترجع هزيمة أثينا إلى خيانة ألكبيادس "Alcbiades" من ناحية، والنشاط الذي كانت تقوم به من ناحية أخرى عصبة من الإرهابيين، عرفوا باسم «الثلاثون طاغية»، وهم الذين ارتقوا إلى السلطة في أثينا والحرب توشك أن تصل إلى نهايتها. وبعض هؤلاء، بالإضافة إلى ألكبيادس، كانوا في وقت ما على صلة بسقراط، بالرغم من أنه لم يكن مسؤولاً عن جرائمهم على الإطلاق. إلا أنه في سنة 339 ق.م. قدمت الحكومة الديمقراطية التي استعادت سلطانها، سقراطاً إلى المحاكمة بتهمة كفره بالآلهة التي تعبدها أثينا، وإفساده الشباب بالمدينة. ولقد مثل المحاكمة علناً أمام محكمة ضخمة تضم (502) من المحلفين. ولم يجد سقراط صعوبة في الدفاع عن نفسه ضد الجزء الأول من التهمة، ولا شك أنه كان سيبرأ من

كلا التهمتين، إذا ما كانت لديه الرغبة في التنصل من رسالته. وبدلاً من أن يفعل ذلك، أعلن أنه لا يستحق أي عقاب، بل يعتبر نفسه مصلحًا عامًا. وكنتيجة لهذا الاتجاه حُكم عليه بالإعدام. وحتى ذلك الحين كان في استطاعته الهروب خارج البلاد، ولكنه رفض قائلاً: إنه لو فعل ذلك، فإنما يتنكر لمبادئه التي قادت حياته كلها. وقال عبارته المشهورة: «علينا أن نواجه الموت مثلما نواجه الحياة».

وقد أفحم سقراط قضاته بأسلوبه الساخر الصلب، إذ قال لهم: «لو أنكم اقترحتم إخلاء سبيلي بشرط أن أتخلى عن بحث الحقيقة لقلت لكم: إني أشكركم أيها الأثينيون، ولكني أؤثر أن أستجيب لطاعة الله الذي أعتقد أنه هيَّأني لأداء هذه الرسالة على أن أنصاع لرأيكم. وما دام بين جنبي نَفَسٌ يتردد، وقوة أشعر بدبيبها في كياني فلن أتوقف عن مزاولة التفلسف ومواصلة التحدث إلى من ألقى من الناس وتكرار القول له: ألا تشعر بالضعة والخجل حين تكلف بالثروة وتتعلق بها، ولا تحرص على الحكمة ولا تعبأ بالحق ولا تعمل على الارتقاء بنفسك...؟ إني لا أعرف ماذا يكون الموت، وربما كان أمراً طيبًا، فأنا لا أخافه ولا أخشاه. ولكني واثق من أن توقف المرء عن أداء وظيفته شر لا محالة، فأنا أؤثر ما يحتمل أن يكون طيبًا على ما أعرف أنه شر».

وأخيراً مات سقراط في السجن بأن أُشرِب جرعة من نبات «الشوكران» وهي الطريقة المتبعة في أثينا لتنفيذ أحكام الإعدام.

2

المرحلة الثانية

أفلاطون

ولد أفلاطون في جزيرة «إجنا» Egina المواجهة لأثينا، لأسرة من علية الأسر الأثينية. اسمه الحقيقي «أرستوكلس» واسم أبيه «أرستون»، ولكن مدربه على المصارعة أطلق عليه اسم أفلاطون لقوة تركيبه الجسماني، وسعة مابين كتفيه.

وقد وجد أفلاطون عناية فائقة بتربيته، وشُغِلَ أول أمره بالأدب وبالشعر خاصة، ثم درس الفلسفة على «كرائيل» قبل أن يلتقي سنة 407 ق.م بأستاذه الكبير سقراط. وكان ذلك تحولاً حاسمًا في حياته، وبقي في صحبة سقراط إلى أن حوكم ثم أعدم سنة 399 ق.م.

ويأتي شبابه في أكثر فترات التاريخ الأثيني خطورة. فبعد صراع مرير استمر لأكثر من ربع قرن، انتهت الحرب البلو بونيزية بالانهيار الكامل

لأثينا كقوة سياسية، واضطربت الشؤون الداخلية للبلاد وخضعت أثينا لحكم الطغاة الثلاثين.

كانت آراء سقراط وشخصيته هي الملهم لكل تفكير أفلاطون، الذي يُعتبر أول شخص في تاريخ العالم ينشئ مذهبًا فلسفيًا شاملاً له تأثيره في الفكر والواقع.

وبعد وفاة سقراط، بدأت المرحلة الثانية في حياة أفلاطون، وهي مرحلة الترحال، وفيها هاجر إلى ميجارا ثم إلى قورينة ومصر وإيطاليا وصقلية.

وفي صقلية انضم إلى بلاط الطاغية ديونيسيوس، الذي غضب عليه غضبًا شديداً بسبب آرائه الفلسفية والأخلاقية، حتى أنه عرضه في سوق النخاسة. ولقد نجا أفلاطون بمعجزة من مصير العبودية، حيث افتداه انيساريس القوريني ومن ثم عاد إلى أثينا. واستغرقت رحلاته فترة امتدت إلى عشر سنوات.

ومع عودة أفلاطون إلى أثينا تبدأ المرحلة الثالثة والأخيرة من حياته، وفيها أنشأ مدرسة أسماها «الأكاديمية»، جمعت التلاميذ والمريدين. وانشغل بقية حياته بالنشاط الفلسفي وإدارة الأكاديمية، وكان لا يتقاضى أجراً عن تدريسه. وتوفي أفلاطون، في هدوء، في الثانية والثمانين من عمره.

ولقد اتخذت كتابات أفلاطون شكل محاورات، وكان في معظمها المحاور الرئيسي سقراط، الذي وضع أفلاطون على لسانه فلسفته هو.

ولقد كتب أفلاطون المحاورات على مدار خمسين عامًا، وهي تنقسم إلى ثلاث مجموعات رئيسة تتطابق مع المراحل الثلاث لحياته. فالمجموعة الأولى كُتبت في فترة متزامنة مع وفاة سقراط، وتشمل هيبياس الأصغر + ليسيس + خارميدس + لاشيس + أطيفرون + الدفاع + كريتون + بروتاجوراس، والأخيرة هي أكثرها تعقيداً من الناحية الفلسفية. ومحاورات المجموعة الأولى قصيرة وكانت تحت تأثير وسطوة أستاذه سقراط. والمحتوى الفكري لهذه المجموعة بسيط، لكنها تعتبر الأفضل من الناحية الأدبية، وهي انعكاس لأفلاطون الأديب والفنان أكثر منها انعكاسًا لأفلاطون الفيلسوف.

وترتبط المجموعة الثانية من المحاورات بفترة رحلات أفلاطون، وتشمل جورجياس + ثيتيتوس + السوفسطائي + السياسي + بارمنيدس.

في هذه المجموعة نجد أفلاطون وقد وقع تحت تأثير الإيليين، وكانت نظرية المثل هي المبدأ السائد في هذه المجموعة التي تَعَرَّضَ فيها للمشكلات الفلسفية وانصَبَّ على الفكر، وبَعُدَ عن زخارف الأسلوب وهي مليئة بالجدل الشاق والاستدلالات الدقيقة.

وتناقش محاورة جورجياس توحيد السوفسطائيين بين الفضيلة واللذة، وتحاول أن تخلص إلى أن الخير يجب أن يكون موضوعيًا ومستقلاً عن اللذة. وكذلك فإن محاورة ثيتيتوس تحاول الوصول إلى أن الحقيقة هي موضوعية وليست انطباع الإنسان كما يذهب السوفسطائيون.

وتناقش محاورة السوفسطائي الوجود واللاوجود، وعلاقتهما بنظرية المثل، وتبحث محاورة بارمنيدس في الحقيقة المطلقة.

والمجموعة الثالثة من محاورات أفلاطون تشمل المأدبة + فيليبوس + طيماوس + الجمهورية + فيدون + فايدروس.

وتميزت هذه المجموعة بالنضج، ولقد وجه أفلاطون فكره وسيطر عليه، فاحْتَوَت هذه المجموعة على الجمال الأدبي للمجموعة الأولى والعمق الفكري للمجموعة الثانية.

ولقد افترضت محاورات المجموعة الثالثة أن نظرية المُثُل قد تأسست، وهكذا فإن محاورة المأدبة، التي تتناول موضوع الحب، تحاول أن تربط بين شعور الإنسان بالجمال والمعرفة العقلية للمثل. وتطبق نظرية المُثُل على مجال الأخلاق في محاورة فيليبوس وعلى مجال الفيزياء في محاورة طيماوس، وعلى مجال السياسة في محاورة الجمهورية، وعلى عقيدة خلود النفس في محاورة فيدون.

ويذهب أفلاطون في محاورة الجمهورية إلى توضيح ماهية الخير، فهو يشبِّه الخير بالشمس والعقل بالعين التي ترى. وفي كهف أفلاطون يدخل الناس المقيدون بالأغلال في علاقات مع الظلال، وبالتالي فهم لا يدركون الحقيقة، ويبنون وجهات نظرهم من خلال معرفتهم الحسية. ولا يبدأ الإنسان ـ لدى أفلاطون ـ في معرفة الحقيقة، إلا إذا خرج من الكهف وشاهد الحقائق. وتتضارب ـ في هذه الأثناء ـ معرفته التي استقاها من المعرفة الحسية، مع المعرفة العقلية، ومع الوقت تنتصر المعرفة العقلية على الحسية. وهو يعتقد أننا نعيش في عالم الظلال، وأن الحقيقة خارج الكهف. وهكذا نستطيع أن نقول إن صورة الكهف عند أفلاطون قد خلقت التمييز الفلسفي بين المظهر والحقيقة. وذهب أفلاطون إلى أن عالم الأفكار هو الحقيقة، بينما العالم المحسوس وهم، فالإدراك الحسي يؤدي

إلى انطباعات متناقضة، ذلك أن الشيء الواحد يبدو كبيراً عن قرب وصغيراً عن بعد.

كما أن أفلاطون يرى أن الفضيلة هي صحة النفس وجمالها، أما الرذيلة فهي مرضها وقبحها.

ولقد تصدى أفلاطون بالنقد لقول السوفسطائيين بأن الأمور كلها نسبية، وأنه لا يوجد حق مطلق أو خير مطلق، وأن العدل نسبي. وقال بأن أخلاقية العمل يجب أن تتبع قيمة العمل، لا شيئًا آخر كالشهوة، ويجب أن نعمل الخير لأنه خير لا لشيء آخر.

ويتساءل أفلاطون: في الجمهورية: هل تتم كل أعمالنا بقوة واحدة سائدة فينا، أم أن هناك مبادئ ثلاثة يؤدي كل منها وظيفته الخاصة؟ ثم يجيب عن هذا السؤال بقوله:- إنه من البيِّن أن شيئًا واحداً بحد ذاته لا يمكنه أن يقوم بعملين متضادين، أو يكون في حالين متباينتين، في وقت واحد، وفي موضوع واحد، وإذا كان الأمر كذلك فإن الأفعال والانفعالات المتعارضة الصادرة عن النفس لابد وأن تكون راجعة إلى أن المبادئ التي تحكمها متعددة وليست واحداً. فالمبدأ الذي يقوم بالنهي والمنع في النفس، إنما يأتي من العقل، بينما يرجع الاندفاع والميل إلى الانفعالات. ويطلق أفلاطون على الجزء الذي به تعقل النفس «القوة الذهنية أو العقلية»، أما الجزء الذي من خلاله تحب وتجوع وتعطش، وتتعرض من خلاله لكل الانفعالات، فيطلق عليه «القوة الشهوية» وهي حليفة اللذة والانقياد. وبجانب هاتين القوتين تنطوي النفس على قوة ثالثة، هي «القوة الغضبية»، حليفة العقل الطبيعية. فالمرء عندما ينقاد لانفعالاته رغمًا عن عقله، يلوم نفسه، ويثور ضد هذاالجزء من نفسه الذي تغلب

عليه، مما يدل على أن الغضب في هذا النوع من الصراع ينحاز إلى جانب العقل.

ويقرر أفلاطون أن كلاً من قوى النفس الثلاث، العقلية والشهوية والغضبية، لها فضيلة خاصة بها. ولقد قسَّم أفلاطون الفضائل إلى أربع: الحكمة والشجاعة والعفة والعدل، ورأى أن فضيلة القوة العاقلة هي الحكمة، وفضيلة القوة الغضبية هي الشجاعة، وفضيلة القوة الشهوانية هي العفة. ولكن هذه القوى المختلفة لابد أن تجمعها فضيلة تعلو عليها لكي يتحقق الانسجام بين جميع الفضائل: فهي فضيلة موازنة بين مقتضيات وواجبات كل قوة من هذه القوى، ومن أجل هذا سميت باسم «العدالة».

فإذا ما تحقق التوازن - «العدالة» - بين قوى النفس وفضائلها، حصلت النفس على السعادة. يقول أفلاطون: «ولكن الواقع أن العدالة... لا تتعلق بأفعال الإنسان الظاهرة، وإنما بأفعاله الباطنة، وبما يختص به الإنسان وما يكون فيه قوام الإنسان. فالشخص العادل لا يسمح لأي جزء منه بفعل شيء خارج عن طبيعته، ولا يقبل أن يتعدى أي جزء من أجزاء النفس الثلاثة على وظائف الجزأين الآخرين، وإنما هو شخص يسود ذاته نظام تام، ويسيطر على نفسه بحيث يعيش على وفاق مع ذاته ويبث الانسجام بين أجزاء نفسه الثلاثة، مثلما تنسجم الطبقات الثلاث في السلم الموسيقي، العليا والدنيا والوسطى، وما قد يوجد بينها من أنغام. فبفضل قدرته على الربط بين هذه العناصر في كل متوافق منسجم، بحيث يجعل من كثرتها وحدة - بفضل هذه القدرة وحدها - يستطيع أي شخص أن يقوم بأي عمل يتولاه، سواء في ذلك جمع المال،

أو إشباع حاجاته الجسمية، أو الاشتغال بالسياسة أو بالمعاملات التجارية. ففي هذه الميادين ينظر دائمًا إلى السلوك العادل الشريف على أنه ذلك الذي يسهم في تحقيق هذا التوافق في النفس، ويرى الحكمة في العلم الذي يهدينا إلى مثل هذا السلوك، أما السلوك الظالم فهو في نظره ذلك السلوك الذي يقضي على تلك الحالة المنسجمة، وأما الجهل فهو الرأي الذي يؤدي إلى مثل هذا السلوك»(١).

وإذا كانت العدالة على هذا النحو تعني التوافق والانسجام بين قوى النفس المختلفة، بحيث تؤدي كل منها وظيفتها الخاصة دون أن تتعداها وتتدخل في اختصاص غيرها، فإن الظلم، على العكس من ذلك، يتمثل في تنافر هذه القوى وتعدِّي كل منها على وظائف الأخرى: «أليس الظلم بالضرورة تنافراً بين هذه الأجزاء الثلاثة، وفوضى وتعدِّيًا من كل واحد على وظائف الأخرى، وثورة من جزء معين على الكل، بحيث يزعم السيطرة على النفس، على الرغم مما تقضي به الطبيعة التي جعلت منه مطيعًا للجزء الآمر بطبيعته؟ أظن أن الفوضى بين الأجزاء هي مبعث الظلم والتهوُّر والجبن والجهل، وبالاختصار كل الرذائل»(٢).

تلك هي الفضائل الأربع التي قال بها أفلاطون، والتي يمكنه بلوغها بالتعليم والتهذب، وغرسها منذ الصغر بالمران والاعتياد الحسن، والبعد عن محاكاة الوضاعة حتى لا ينتقل من هذه المحاكاة إلى التطبع الفعلي بتلك الرذائل.

---

(١) الجمهورية لأفلاطون - ترجمة د. فؤاد زكريا .
(٢) الجمهورية لأفلاطون - ترجمة د. فؤاد زكريا.

المؤثرات الخارجية في فكر أفلاطون

تأثير إسبرطه في فلسفته

يقول برتراند راسل(١): لكي نفهم أفلاطون، لا بد لنا من معرفة شيء عن إسبرطة. فقد كان لإسبرطة على الفكر اليوناني أثر مزدوج: أثر ناشئ عن الحقائق، وآخَر ناشئ عن صورة خيالية، ولكل من الأثرين خطره. فالحقائق هي التي مكنت الإسبرطيين من هزيمة أثينا في الحرب، أما الصورة الخيالية فهي التي أثرت في أفلاطون حين كتب نظريته السياسية، بل أثرت في عدد لا يحصى من الكُتّاب بعد ذلك، حين وضعوا نظرياتهم السياسية.

وإذا ما حاولنا أن نُشبع رغبتنا في معرفة تفاصيل المجتمع الإسبرطي فإننا مضطرون للرجوع مرة أخرى إلى راسل، حيث إنه اعتمد على كثير من الكتب الأصيلة التي لا نستطيع الحصول عليها.

ويتحدث راسل عن:

أ ـ نظام الملكية في إسبرطة: كانت الأرض الزراعية كلها ملكًا للإسبرطيين الذين كان يحرُم عليهم بحكم القانون والعرف أن يزرعوها بأنفسهم لسببين: الأول: أن هذا العمل يحط من كرامتهم. والثاني: هو ضرورة أن يتفرغوا للخدمة العسكرية. ولم يكن العبيد يُباعون ويُشترون، ولكنهم كانوا مرتبطين بالأرض طيلة حياتهم. والأرض مقسمة

(١) الفلسفة الغربية ـ برتراند راسل.

أجزاء يملك كل إسبرطي من الذكور البالغين قسمًا منها أو أكثر، وهذه الإقطاعيات الزراعية لم يكن من الجائز بيعها أو شراؤها، وإنما كانت بحكم القانون تنتقل من الوالد إلى أبنائه، كما كان يمكن نقلها بالوصية إلى من شاء مالكها.

ب ـ **حدود الحرية الفردية**: لكي تتضح في الأذهان صورة واضحة عن النظام الإسبرطي، يجب التعرُّض إلى الحرية الفردية. وفي هذا يقول بلو تارك: لم يكن الإسبرطي في أي من مراحل عمره يتمتع إلا بالقليل من الحرية، فقد كانت حياة الإسبرطيين ذات الطاعة والنظام تستمر معهم بعد أن تكتمل فيهم الرجولة التامة، لأنه لم يكن يسمح لأي رجل أن يعيش كما يشاء، بل كانوا في مدينتهم كأنما هم يعيشون في معسكر، حيث يعلم كل إنسان أي قسط من الحقوق ينبغي أن يطلبه، وأي واجب عليه أن يؤدِّيه. واختصاراً كانوا جميعًا على هذه العقيدة، وهي أنهم لم يولدوا ليخدموا أنفسهم بل ليخدموا بلدهم... ولم يكن يسمح للإسبرطيين بالسفر، ولا يسمح للأجانب بالدخول إلى إسبرطة إلاَّ لقضاء عمل ما، لأنهم كانوا يخشون أن تفسد العادات، الغريبة عنهم، ما في بلادهم من فضائل.

جـ ـ **نظام التربية في إسبرطة**: يمكن تلخيص هذا النظام في عدة نقاط على النحو التالي :

1 ـ يقوم رؤساء القبائل بفحص المواليد، فيلقون في العراء من تكون به علة أو مرض، ولا يسمح بالبقاء إلا لمن يرونه قويًا صحيحًا.

2 ـ يتجمع الصبيان كلهم في مدرسة واحدة حتى سن العشرين، وذلك لتوفير النظام بينهم، ولكي يخرج منهم رجال أقوياء لا يأبهون بالألم ولا ينصتون لهراء الثقافة والعلم، لأن الهدف هو جعلهم جنوداً صالحين.

3ـ للمواطن الإسبرطي عمل واحد، هو الحرب.

4 ـ الخدمة العسكرية تبدأ من سن العشرين.

5 ـ يسمح بالزواج لكل من تجاوز العشرين، بشرط أن يظل الرجل حتى سن الثلاثين في ما يسمى «بيت الرجال»، وأن يكون اتصاله بزوجه خفية وسراً وكأنه خارج على القانون.

6 ـ إذا ما وصل المواطن إلى سن الثلاثين أصبح مواطنًا كاملاً، وغدا عضواً في جماعة مشتركة في المعيشة، يأكل طعامه مع سائر الأفراد الأعضاء.

7 ـ على كل مواطن أن يُسهم بشيء من محصول إقطاعيته، حتى لا يصبح هناك مواطن إسبرطي ذا ثراء.

8 ـ لا يسمح لواحد أن يمتلك ذهبًا أو فضة، وكانت العملة تُصنع من الحديد حتى لا يفكر واحد في اختزانها فتصدأ.

9 ـ وما كان يحدث للرجال كان أيضًا يحدث للمرأة الإسبرطية، إذ كانت الفتيات تجتزن مراحل التدريب البدني نفسها، التي كان يجتازها الفتيان، بل العجيب أن أبناء كلا الجنسين كانوا يقومون معًا بتمريناتهم الرياضية وهم عراة الأجساد تمامًا.

10ـ لم يكن يسمح للنساء أن يبدين أية عاطفة لا تعود بنفع على الدولة، فلهن أن يظهرن احتقارهن للمواطن الجبان، حتى ولو كان المحتقر ابنهن، ولم يكن لهن أن يبدين حزنًا إذا حكم بالموت على من يلدن إذا تبين ضعفه، أو إذا قتل في الحرب.

د ـ مظاهر الشيوعية الإسبرطية :

لا ينبغي للمتزوجة العاقر أن تعترض، إذا أمرتها الدولة أن تجرب رجلاً آخر غير زوجها، لعلها تلد للدولة أبناء، إذ إن التشريع الإسبرطي يقضي بتشجيع النسل. ويذكر عنهم أرسطو أن الوالد لثلاثة أبناء يعفى من الخدمة العسكرية، ووالد الأربعة يعفى من كل ما تقتضيه الدولة من واجبات.

وكان من الجائز في حكم القانون أيضًا أن الرجل الشريف إذا أحب زوج رجل آخر، التمست من زوجها أن يسمح له بمضاجعتها وإخصاب تلك التربة، ببذور تنبت الأبناء الصالحين.

ولم يكن يسمح بالغيرة الحمقاء، ولا يجوز أن يختص الرجال بأبنائهم بل ينبغي أن يكون الأطفال مشاعًا للصالح العام.

وكانت هناك علاقة «المثلية»، أي الاتصال الجنسي بين شخصين من جنس واحد، ذكوراً أو إناثًا. وهذا الاستجناس كان نظامًا يقره الناس في إسبرطة.